

BRITAIN. WAR-CHANGED AND CHANGELESS

HENRY BAERLEIN

بريطانيا التي غيرتها الحرب ولم تتغير

من الطبيعي أن يسأل المرء بعد حرب كبيرة متى تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل ، بحيث تكون في الوضع الذي كان يعتقد عادياً . على أنه لو لم تقم الحرب ألا تتغير الأمور في الدولة غير الراكدة بحيث يصبح ما هو عادى اليوم غير عادى في الغد ؟ هنالك المثل الفرنسي القائل كلما بدت الأمور متغيرة كانت متائلة ، فكيف نوفق بين هذه التناقضات في الظاهر ؟ إننا سنحاول إثبات أن بريطانيا اليوم تختلف عنها في السنوات السابقة للحرب الأخيرة ، وأنها في الوقت نفسه لا تزال هي بريطانيا تلك الأيام .

ماهي التغيرات البارزة التي سببتها الحرب ؟ أول ما يبرز للعيان التغيرات المادية ؛ ففي لندن وفي غيرها من المدن الكثيرة جروح شريفة وأرض فضاء حيث كان يقوم هنا بناء وهناك آخر ، وساحات نمت فوقها الأزهار البرية التي هي أكاليل تبجيل للحداد . على أن هذا الدمار ليس هو أهم الخسائر الهامة التي تحملتها بريطانيا . فلقد كانت خسارتها في قوى الرجال فادحة . ولاريب في أن شباب الأمة كانوا السواد الأعظم من الضحايا التي قدمت على مذبح الأنداد ، فصار ما بقى من الأيدي لا يكفي للقيام بالأعمال . ثم في الوقت نفسه ، لا يستطيع أولئك الذين خدموا في الجيوش المسلحة ، وعاشوا عيشة تختلف كل الاختلاف عن دورة الصناعة المستمرة ، أن يوطنوا النفس على حياة تسير على وتيرة واحدة . فالجواد الذي ربي للسباق ليس أصلح جواد يشد إلى العربات . والكثير من هؤلاء الشبان نشأ في وسط متنع وارتفع إلى مرتبة عالية في الجيش . وليس عجيباً ألا يرغب بعض هؤلاء في العودة إلى المكان الذي كانوا يشغلونه لو لم تقم هذه الحرب . وإنى لأعرف رجلاً

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

كان يعمل في حانوت أبيه الذي يبيع أدوات الطهي ولوازم البيت في بلدة من البلاد الواقعة على شاطئ البحر ، وقد وصل في الجيش إلى مرتبة كابتن ، وأبى أن يعود إلى مهنة البيع . غير أن ساقى التبيذ في النادي الذي اشترك فيه ، ارتفع في الجيش أيضاً إلى مرتبة كابتن ، ومع ذلك أثر أن يعود إلى عمله السابق . وبينما يضع على صدره شارة لا تمنح لغير الضباط ، نراه يقوم بعمله خير قيام كما يجب أن يفعل ساقى التبيذ دائماً في الأندية . وهو يخاطب رجالاً هم أصغر منه سناً ، ولو استمرت الحرب لكان يصدر الآن إليهم الأوامر ، بكل جمالة ، وكلمة « سيدى » تختتم كل عبارة من عباراته . والواقع أن هذا المسلك يتوقف على طبيعة الشخص .

ذكرنا أنه لم يبق في بريطانيا من الرجال ما يكفي للأعمال التي ينبغي القيام بها . فلنسائل إذن لماذا لا يظل النساء بعض الوقت في عملهن ، وقد سبق أن حللنا محل الرجال في ميادين عدة داخل بريطانيا ؟ لقد نفذ هذا الإجراء لحد ما ، فقد استمر آلاف من الفتيات اللاتي عملن في سيارات الأجرة في عملهن بناء على رغبة السائقين الذين وجدوا منهن خدمة صادقة ، وتستطيع الفتيات القيام بهذا العمل بمثل الكفاية التي يظهرها الرجال . لذلك كان من حسن التدبير الاقتصادي أن يبقين في هذا العمل ليقوم الرجال الذين شغل هؤلاء الفتيات مكانهم بأعمال غير ميسورة للنساء .

وفي بريطانيا اليوم عدد من أسرى الحرب يقومون بأعمال مختلفة كالزراعة مثلاً ، ولا يرغب الزارعون في كثير من الأحوال أن يستغنوا عن هؤلاء الأسرى ، لا سيما الألمان منهم ، الذين هم أكثر نشاطاً من غيرهم . والزراعة تشغل على غير ما يعتقد الناس أكبر نسبة من العمال في بريطانيا . ولا يقوم الاعتراض على تشغيل الأجانب فيها كما هو الشأن مثلاً في صناعة التعدين . على أن في هذه الصناعة نقصاً ظاهراً في الأيدي العاملة ، فالكثيرون من العمال يأبون اليوم أن يربوا أولادهم على هذا النوع من العمل . وقد قوبل اقتراح تشغيل البولنديين في المناجم بالاعتراض من نقابات العمال ومن البولنديين أنفسهم ، إذ أنهم لا يرحبون كثيراً بهذا العمل . ولكن جمعيات التعدين رضيت بهم الآن ، على أن يكون من المفهوم أنهم أول من ينحى عنه إذا كان العرض بين العمال البريطانيين يزيد على الطلب .

ومن التغيرات النفسية في بريطانيا بعد الحرب تقلص الميل إلى العزلة ،
لا بين الرجال والنساء الذين كان من نصيبهم أن يعملوا أثناء الحرب في البلاد
الأجنبية وحدهم ، بل أيضاً بين الذين أقاموا في البلاد البريطانية . وقد
أُتيحت للبريطانيين الفرصة في أنحاء كثيرة من بريطانيا لأن يتصلوا ببعض
الحلفاء ، وحدث أن تم الزواج بين عدد كبير من النرويجيين والهولنديين
وغيرهم من الحلفاء القيمين مؤقتاً في بريطانيا وبين عدد من الفتيات البريطانيات .
وسيقم بعض هؤلاء الأزواج في بريطانيا ، وسيرى جيرانهم أن الأجانب قد
يكونون من خيار الناس . ومن العوامل التي قاومت الميل إلى العزلة أن الحرب
كانت حدثاً عالياً ؛ وكانت الصحف تنتقل بنا إلى سائر أنحاء الكرة
الأرضية ، فصار أقل الناس ابتعاداً عن داره على علم ، لحد ما ، بأماكن كان
يجهلها كل الجهل .

وأمام هذه التغيرات في الطباع الوطنية البريطانية يجب أن نحسب حساباً
للأمور التي بقيت وستبقى على ما يظهر ثابتة لا تتغير : مثال ذلك أن من
العادات الثابتة في المعهد الدولي بلندن منذ مائتي سنة أن تلقى محاضرة أسبوعية
تستغرق ساعة واحدة تماماً . فإذا أراد المحاضر أن يتكلم أكثر من ساعة كان
عليه أن يستأذن المستمعين . وقد حدث منذ سنوات عدة أن فلكى القصر
كان يلقي محاضرة ، فنسى نفسه وهو يسرد أقوالاً في غاية الخطورة وتابع كلامه
بعد فوات الوقت بعشرين دقيقة ، فأثار ذلك نقد الحاضرين . وقد وجه أحد
زائري المعهد سؤالاً لأحد موظفيه — ولكل عضو أن يستصحب زائراً — هل
عدل عن هذه المحاضرات في الوقت الذي كانت فيه لندن هدفاً لأسلحة هتلر
الكريهة ؟ فأجاب : كلا ! إن نابليون لم يقف محاضرات المعهد . ولم يستطع
هتلر وقفها .

ومثل حسن لهذا الاستمرار نجده في محل كريد الشهير لحياكة الثياب
وهو الآن في جيله السابع ؛ فأصحابه كانوا أول من حاك أثواب النساء من
الصوف . وقد انتقل رأس هذه الأسرة من الريف إلى لندن في سنة ١٧١٠ .
ومنذ بضعة أشهر كان أحد أفراد سلالته يتحدث إلى إحدى الصحف وقرأ عليه
الصحفي عبارة أراد أن يضمنها مقالته ، وفيها يذكر « مجموعته الجميلة من ثياب
سنة ١٩٤٧ » . على أن مسر كريد أبدى شيئاً من القلق لأن الصحفي لم ير

تلك الثياب ، ولكنه رضى أخيراً بالعبارة لأن أسرة الصحفي ظلت ثلاثة أجيال ترتدى الثياب من صنع كريد . فللصحفي إذن الحق في إبداء هذا الرأي حتى قبل أن يرى ما سيظهر في الموسم الجديد . ثم قال مستر كريد : « يجب أن تضيف لهذا القول أن نوع الأصواف الانجليزية التي ترسل للخارج لم يتأثر بالحرب مطلقاً » .

وقد يكون من فائدة بريطانيا أن تنظر إلى نفسها بالعين التي ينظر بها الأجانب إليها . وقد كان في بريطانيا في السنوات الأخيرة من الأمريكيين أكثر من غيرهم من الأجانب ، وانتقد هؤلاء بعض الأمور ، ولو استطاعوا تغيير هذه الأمور لفعلوا ، وبمنا عدم وجود وسائل التدفئة في الدور . وذكر أحدهم أنه وجد فنادق لندن أكثر استعداداً بوسائل الراحة بعد أن زار بلاكبول ، غير أنه وجد في الفندق الريفي من حسن المجاملة وعناية صاحب الفندق ما عوضه كثيراً ، فتلك الجهات البعيدة تكتسب عطفك بحميل العذر . وذكر أنه قابل فتى وفتاة في عربة القطار ، فقدموا له قطعة من الكعك ، فرفضها معتذراً متأثراً بفكرة الطعام المحدد للناس فقالت له الفتاة لا بأس إنها غير متقنة ، فأخذ القطعة ليثبت لها العكس فوجدها لذيدة جداً .

ولقد أتنق هذا الأمريكي وسيلة إلى غسل قمصانه . ذلك أنه يشتري قطعة من الصابون وشيئاً من الشكولاته ويتخذ مظهر الوداعة ، ثم يتحدث إلى صبي من خدام الفندق زاعماً أنه من أصل بريطاني وأنه ابتداء تعليمه في مدارس بريطانيا عندما كان صبياً أصغر منه . فلا يلبث هذا الغريب أن يكتسب عطف الصبي بهذا الحديث . وقد يقول له الصبي على سبيل المجاملة : « لا أظن أنك تتكلم الانجليزية كغيرك من الأمريكيين » . وعندئذ يحدثه عن مشكلته فيقول الصبي إن له أمّاً ، وأنه سيسألها هل تستطيع غسل بعض القمصان ، وحينئذ يعطيه شلن ونصف شلن من النقود . وقد يعيدها الصبي في اليوم التالي قائلاً إن أمه لا ترغب في قطعة النقود ، وإنما تريد قطعة من الصابون ، وحينئذ يفسر له الأمريكي أن النقود ليست لأمه بل له ويرسل قطعة الشكولاته لأخيه ، وإذا القمصان تعود نظيفة . أما الأجر فيطلب إليه ستة بنسات عن القميص

فكان لا يدفعها بل يزيدھا ثلاث مرات ، فصار عنده مورد من القمصان النظيفة .

أجل ! فبالرغم من الشدة السائدة في الوقت الحاضر ببريطانيا وبالرغم من كل الأسور التي لم تتغير وما تم من تغيير في السنوات الأخيرة . فان الحياة في كثير من أنحاء العالم أقل متعة منها في بلاد الانجليز .

هنرى بيرلى

. نقلها إلى العربية ز. ي. ع.

تنبیه

سقط عند طبع قطعة « صورة الفنان » المقتولة عن الفرنسية
للاستاذ هنرى القيم الإشارة إلى أنها مقتبسة من كتاب له
سيظهر في باريس . وهو أثر لما علق بنفسه من صور الفنان
المصرى العظيم محمود بك سعيد .